كتاب الموازنة للآمدي وبناء النقد المنهجي في تاريخ النقد العربي القديم

قام النقد العربي القديم قبل تاريخ هذا الكتاب على الحكم أو على النقد الذي يتأسس فيه البلاغي والنحوي واللغوي ويتمأسس أكثر من الفعل النقدي بوصفه يقوم على شروط معرفية ونصية معينة ..يعد هذا الكتاب أول نص نقدي متخصص؛كون النقد ميدان تخصصه وليس البلاغة أو النحو أو مجال آخر ..كتاب الموازنة لصاحبه أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي..لعل أهم مايجب أن تقف عنده أن الآمدي قد سيطر على التراث النقدي حتى عصره،مما يجعلنا نلح على مسألة امتلاك المرجعية التي مكنته من بناء منجزه النقدي،مكنته من إستجماع ما تشتت وبناء مفاهيم ما استغلق والسيطرة على تحديد المفهوم والتمكن من حصر مجال النقد،فقد استقرت معه مقاييس النقد وأصوله وتحدد مجال النقد..فكيف تسنى للآمدي كل ذلك ،وكيف اجتمعت له الآلات الضرورية للنقد المنهجي ..؟ما لاحظته من خلال قراءتي لكتابه أن النقد هو معرفة بعلم الشعر،فقد ارتفع بالموازنة عن سذاجة النقد القائم على المفاضلة ،فجاءت موازنته مدروسة مؤيدة بالتفصيلات إذ يقول :(أنا أبتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين لأختم محاسنهما ،وأذكر طرفا من سرقات أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره ومساوئ البحتري في أخذ ما أخذه من أبي تمام وغير ذلك من غلطه في بعض معانيه ،ثم أوازن من شعريهما بين قصيدة وقصيدة اذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ثم بين معنى ومعنى ،فإن محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك وتنكشف،ثم أذكر ماانفرد به كل واحد منهما فجوده من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه...الموازنة ص٥٤)..لقد قامت الدراسات السابقة حتى في باب الطبقات على المفاضلات إذ يتضح ذلك جليا كما أوردنا في درسنا لفحول الشعراء مثلا تفضيل طبقات على أخرى على نحو مالاحظنا أنهم يجعلون من امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى في الطبقة الأولى من الجاهلين كونهم يمثلون النموذج الشعري الذي تمأسس بفعل الإيديولوجيا لا من خلال الفعل النقدي المبني على الموضوعية ،ومن ذلك إهمال ابن سلام الجمحي لشعراء عصره كونهم لا يمثلون النموذج الشعري الذي حددته المؤسسة الثقافية النقدية العربية كما أوضحنا ذلك في محاضرات سابقة ..فالآمدي يبدأ الموازنة بين البحتري وأبي تمام بأن يورد حجج أنصار كل شاعر وأسباب تفضيلهم له ،ثم يأخذ في توضيح سرقات أبي تمام وأخطائه وعيوبه البلاغية ويفعل الشيئ نفسه مع البحتري لينتهي إلى الموازنة التفصيلية بين ماقاله كل منهما في كل معنى من معاني الشعر.يبدو اشتغال الآمدي موضوعيا من خلال تتبعه لكلا الشاعرين بدقة ..لقد استغل الآمدي جميع وسائل النقد التي كانت موجودة في عصره لتبيان المعاني المسروقة وتتبعها فناقش مؤلفات من تقدموه مما يؤكد عندنا أهمية المرجعيات في دراسته النقدية التي بدت أكثر علمية من غيرها ..قامت موازنته على المقابلة بين الحسنات والسيئات دون إبداء الرأي مما يؤسس لتجاوز المفاضلة الكلاسيكية وامتلاك آلة النقد الموضوعي،إذ يتضح ذلك في قوله:(ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندي لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر،ولا أرى لأحد أن يفعل ذلك فيستهدف لذم أحد الفريقين ،لأن الناس لم يتفقوا على أي الأربعة أشعر امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى ،ولا في جرير والفرزدق والأخطل ،ولابشار ومروان ،ولا في أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم ،لاختلاف أراء الناس في الشعر وتباين مذاهبهم فيه الموازنة ص ٣).يبدو الآمدي في هذا القول موضوعيا منصفا بعيدا عن المفاضلة الكلاسيكية وإن كنا لانرى في موقفه هذا علاقة بالذوق فقط بل موقفه في الحقيقة جاء عن صراع بين القديم والمحدث لم يكن ليفصل فيه بسبب هيمنة النموذج والمؤسسة الثقافية الكلاسيكية العربية،كما أوردنا ذلك في كثير من موضع في محاضرات سابقة..يعود الآمدي إلى فريقين مختلفين في بناء موازنته مما يكشف عن رؤيته الموضوعية في تقديم مذهبين شعريين(القديم والمحدث) ،كانا يشكلان محطة مهمة في تاريخ النقد العربي القديم.. إذ يقول:(ووجدت أكثر أصحاب أبي تمام لايدفعون البحتري عن حلو اللفظ وجودة الرصف وحسن الديباجة وكثرة الماء وأنه أقرب مأخذا وأسلم طريقا من أبي تمام ويحكمون مع هذا بأن أباتمام أشعر منه ..)..إذ يبدو كأنه يتناول الخصومة كرجل بعيد عنها كما يرى محمد مندور (النقد المنهجي عند العرب ..ص100)، مما أسس لمنهجية نقده ..فقد استقرت مقاييس النقد وتحددت أصوله بعد هذا الكتاب بفضل الآليات التي اتبعها الآمدي من موضوعية في الموازنة وتجاوز للمفاضلة ودقة في تتبع القضايا النقدية عند كل من البحتري وأبي تمام وإعداده للمادة العلمية التي اشتغل عليها وبفضل ما امتلكه من مرجعيات سابقيه.